الســـارد ونـــواقـــص الارشـيف .. سحـــر الـــسرد

سعـد محمـد رحيم

نحن أبناء السرد، كهنة معبده، الواقعون في أسره، في أسر سحره.. فمن اللحظة التي ابتكر فيها الإنسان فن السرد انكسر نسق حياته البدائي/ الوحشي فصار يفكر بكونه مركز الوجود، وأنه ليس معطى عرضياً للعالم بل هو فاعل فيه ومغيّر، فيما صارت الحضارة الإنسانية ممكنة. فمع السرد بات الإنسان يعلم أنه مميز بوعي كينونته، وأنه صانع قيم ومبدع تجربة فريدة، حيث السرد وسيلته لتنظيم فوضى التجربة تلك، واستخلاص معنى للحياة عبر علاقة البشر بعضهم ببعض، وعلاقتهم بالطبيعة وما وراءها.

لا شيء يفتن أكثر من السرد، فنحن نبحث عنه حيث يمكن أن يكون وحيث لا يمكن، لا لشيء إلا من أجل أن نطمئن، فهو يمنحنا سلام الروح والعقل، يكيّفنا مع الوجود، ويكيّف الوجود مع مالنا.. إنه يعقّل وجودنا في العالم ويجنبنا الرعب.. فمع السرد نفهم ولولاه لتعذرت عملية الفهم. فنحن نرغب بشدة أن نعرف القصة/ السرد حين يحدث أمر ما في محيطنا سواء أكانت له علاقة بنا أو لا. ونبحث عن القصة/ السرد حتى حين نعاين لوحة فنية أو صورة أو منحوتة وكذلك حين نستمع إلى الموسيقى.. إننا بشر بقدر شغفنا بالسرد.

الحاجة إلى السرد تعادل الحاجات البيولوجية، الحاجة إلى الماء والطعام والنوم والممارسة الجنسية، وكذلك الحاجة إلى الأمن. ففي السرد طاقة استشفائية خلاقة.. إن صحتنا النفسية وأحياناً البدنية تتطلب دخولنا في دنيا السرد.. يقول جون بارت "إننا في الحقيقة أحياء، ككائنات حية، بقدر بقائنا مهتمين برواية القصص لبعضنا البعض".. إن من تضيق به الدنيا يفضفض عمّا في نفسه فيحكي، يعيد القصة من أولها، يرتّبها كما يرى، فيكون عندئذ بحاجة إلى متلقٍ، إلى سامع، إلى قارئ. وعلم التحليل النفسي (السريري) يبحث عن مفاتيح حل المعضلة النفسية من خلال تداعيات الأفكار، من خلال السرد. وحتى الحلم، الذي هو مفتاح آخر مهم لابد أن ينطوي على بنية سردية. لذا من أقسى العقوبات التي يتعرض لها الإنسان السوي هي السجن الانفرادي، لأنه يحرمه ممن يسرد له، وممن يستمع إلى سرده هو. وحتى في السجن الانفرادي، وحتى حين يجد المرء نفسه وحيداً، معزولاً، فإنه لا يعدم الحيلة، فهو في هذه الحالة سيحكي لنفسه، أو بالأحرى يتخيل متلقياً متعاطفاً يحكي له، ويستغرق في أحلام اليقظة، وربما من أجل تجنب الجنون أيضاً.

والسرد في نهاية المطاف هو احتفاء بالحياة، تشبث بها. حين نفكر، بهذا الصدد، بمثال تقفز أمامنا فوراً حكايات ألف ليلة وليلة، أو بالأحرى حكاية شهرزاد نفسها مع الملك شهريار، أي الحكاية الإطار التي تتيح الفرصة لسرد بقية الحكايات، وتجعل منها ضرورة.. تجعل منها مكافئة للحياة في مواجهة سطوة الموت المتربص. وشهرزاد عبر ترويضها لشهريار الملك كانت تحفظ حياتها وحياة بنات جنسها، وأيضاً تشفي شهريار مما يعاني منه.

ذات مرة أعلمني رجل دين أن زمن نزول سورة يوسف في القرآن الكريم (وهي سورة مدنية تتضمن قصة متكاملة) كان بعد غزوة أحد، أي بعد الهزيمة، أي حين كانت النفوس محبطة حزينة.. لماذا نزلت هذه السورة في هذه الأثناء؟ لأنها ببساطة تنطوي على قصة ذات حبكة، قصة متعاضدة العناصر، مثيرة وشيقة، مصاغة باللغة العليا التي هي لغة القرآن بسلاستها ورفعة مجازاتها، وقوة استعاراتها، وسعة دلالاتها.. قصة لها القدرة على الاستشفاء.

ففي السرد/ أي القص سحر وجاذبية وسلطة بمقدورها امتصاص الحزن، والحد من الإحباط.. إنه يمنح الغبطة، والأمل.. ويساعد الإنسان في العثور على مكمن الطاقة فيه، يدلّه على الأفق الآخر. فمع السرد هناك فرصة للعبور، للخروج من النطاق الضيق، للاتساع.. وربما للهرب، وكذلك للعثور على الطريق في الغابة الغامضة المتشابكة العصية، الغابة التي هي كناية عن حياتنا ووجودنا.

مهما بدت الغابة غارقة في الفوضى فلابد أن تكون لها خارطة، خارطة خفية محفوظة في سجل الممكن، أو في عقل الله، وفي إمكان البشر تحديد نقاط دلالة فيها. ثمة نظام سري دائماً علينا الوقوع عليه.

في الغابة، هذا من شأن الداخل/ الإنسان. وفي السرد هذا من شأن القارئ/ الإنسان. وعملية الدخول لغابة السرد هي نوع من التورط الجميل. لكن الخروج منها ليس مثل الدخول فيها.. إنك عندئذ لست مثلما كنت. لابد أن شيئاً ما يكون قد تغير فيك، وإلى الأبد.

نخرج من رتابة ووحشة الحياة الواحدة إلى رحابة المتعدد والمتنوع بوساطة السرد، أي مع قدرة البشر على الحكي، على القص. فالسرد يمنحنا فرص مشاركة، بمعنى ما، مع حيوات أخرى، حقيقية أو متخيلة.. تصاحب وتقلق وتخاف وتفرح وتحزن وتفكر وتشعر بالإحباط، أو بالأسى أو بالأمل، هذا كله مع الشخصيات السردية.

يسحرنا السرد لأننا كائنات يملؤنا الفضول، وحب المغامرة، والرغبة في التعويض عن نواقصنا، وأحياناً عن فشلنا. ولذا فإن مبدع فن السرد لا يمكن إلاّ أن يكون فضوليا، مفعماً بحس المغامرة، ومالكاً للقدرة على التخيل.. ما نريده في النهاية هو أن نتجاوز الممكن والمتاح والمحدود والحاصل، فمع السرد نحن موعودون بأفق آخر أرحب وأجمل. فالسرد طريقة مجدية لمغادرة محدوديتنا التي نضيق ذرعاً بها، فنرتاد حينها لا نطاق حاضرنا وحسب، وإنما نبتكر صوراً لمستقبلنا.. إن المستقبل الذي نحلم به هو سردية متخيلة، ملفقة.

كما أن بمستطاعنا، بالتوسل بإستراتيجيات وآليات وممكنات السرد، أن نتقصى في مسارب التاريخ، إذ ذاك يكشف السارد عن وجه التاريخ الآخر المخفي والكثيف.. المهمل والمنسي والمسكوت عنه.. السارد، ها هنا، يفوق المؤرخ فضولاً وحرية، فإذا كان المؤرخ يميل إلى العام والمجرد والمثال فإن السارد ينبش بحثاً عن الخاص والمشخص والاستثنائي.. كلاهما يجول الحقل ذاته غير أن السارد يمضي قطعاً، بحكم ممكنات وحقوق ومقتضيات السرد نحو أفق أوسع.. قد يحتاج المؤرخ أحياناً إلى قوة التخيل، لكن السارد بحاجة إلى تلك القوة، في كل وقت. السارد بحسب هذا التخريج كائن يتخيل.. الخيال، بمعنى ما، هو إعادة ترتيب لبنى الواقع، كسر لسياقاته المعروفة ولعب بزمانه ومكانه.

"استيقظ غريغوري سامسا ذات صباح فوجد نفسه وقد تحول إلى حشرة كبيرة" هذا المقطع الشهير يكوّن، كما نعلم، الجملة الاستهلالية لرواية (المسخ) لفرانز كافكا.. وهو مقطع مصنوع بطاقة الخيال العجيبة ومنطقه.. فعل الاستيقاظ هو حركة في الواقع، والإنسان (غريغوري سامسا) الذي نقابل من أمثاله (قبل تحوله إلى حشرة) العشرات والمئات هو من ممكنات مادة الواقع، وكذلك الصباح والحشرة وفعل الإيجاد وصفة الكبر، لكن ما أبدعه كافكا في (المسخ) هو أنه تجاوز مألوف الواقع، أعاد صياغة مفردات من الواقع بمنطق غير مألوف.. معظم ما يجري بعدئذ هو اعتيادي ومألوف، غير أن تحوّل سامسا إلى حشرة كبيرة يلقي بظله على الاعتيادي والمألوف ويظهره بوشاح غريب ومرعب كأنه الكابوس، أو هو الكابوس.

ليس في التاريخ حقيقة صافية.. حقيقة خالصة نظيفة نهائية، مؤكدة تماماً.. ثمة معطيات متوفرة، شذرات، وقائع نتداولها (أرشيف) من يدري كم منها زائفة أو محورة أو مؤسطرة أو ناقصة.. هذه المعطيات والشذرات والوقائع يتعامل معها المؤرخ من خلال وجهة نظره، ويستخدم حدسه أحياناً، حتى وإن لم يعترف بهذا، وينتقي بمقتضى ميوله وتحيزاته بهذه الدرجة أو تلك. ومبدع العمل السردي المتخيل بالمقابل لا تهمه إن كانت المعطيات حقيقية، إن كان الأرشيف صادقاً وكاملاً. فهو لن يدّعي أبداً أنه يقول الحقيقة كما حصلت، ولن تقلقه الحاجة إلى الموضوعية، إنه أكثر حرية وأقل تبجحاً بكثير من المؤرخ. فذلك المبدع يعترف؛ ما يهمني هو الصدق الفني لا التاريخي. لكننا في النهاية، باعتقادي الشخصي، نكون مع مبدع السرد الجيد أقرب إلى الحقيقة منها من المؤرخ الجيد (حتى لا نتكلم عن الأدعياء وأشباه الموهوبين وأنصاف المتعلمين).

ما يهم السارد ليس الأرشيف وحسب، وإنما نواقص الأرشيف وثغراته. إنه يبتهج لمثل هذا النقص، أو الثغرة، فعمله يبدأ من هنا.. فهو يحشو أو يرمم النقص أو الثغرة بحضور سردي معزز بالوعي وقوة المخيلة، مبدّلاً في كلية الصورة وشاحناً إياها بإشارات ودلالات مضافة، وهذا ما يعطي تجربة الكتابة الفنية وكذا الحياة نكهتهما ومعناهما.

كي يهيئ للآتي يدخل مؤلف السرد مع قارئه في لعبة يمكن أن نطلق عليها تسمية لعبة الافتتان، أو لعبة السحر، فالمؤلف يريد إبقاء قارئه معه حتى النهاية، فيستدرجه منذ الصفحات الأولى من نصه السردي ويمنحه المغريات طوال الوقت، ويجعله في أفق انتظار مشوق.. يقول أمبرتو إيكو؛ "إن النشاط التوقعي للقارئ يشكل مظهرا حيوياً لا يمكن تجنبه في عملية القراءة فهو يضع للتداول آمالاً ومخاوف وأيضاً حالات توتر ناتجة عن التماهي في مصير الشخصيات".

لا يدلف القارئ إلى دنيا السرد خالي الوفاض فليس هو بالصفحة البيضاء، أو المادة الخام المحض.. إن له تجربته في الحياة وفي عالم الثقافة، مهما كانت درجة غنى أو فقر هذه التجربة.

كيف لي أن أفهم وأفسر نصاً ما من خلال إشاراته فقط.. إن ما يعينني، هنا، قارئاً للنص، هو مرجعياتي، ثقافتي، تجاربي، خبراتي، مزاجي، ذكائي، تحيزاتي، ميولي، اهتماماتي، عواطفي، غرائزي، أو كل ما هو أنا عليه.. أي أناي.. فالذات القارئة تقتنص الإشارات وتضعها في مرشحها، في أنبوبة اختبارها، تحت عدستها.. إننا إذ نكتشف خفايا وأسرار الغابة إنما نكتشف خفايا وأسرار أنفسنا.

إننا نحيل تجربتنا الحياتية إلى قصة (بناء سردي) لنفهمها، وربما كنا نفهم العالم وأنفسنا من طريق القصص على نحو أفضل مما نفهمهما من أي طريق آخر. ولا عجب أن تلجأ العلوم الإنسانية المختلفة لتوضيح منطلقاتها وأطرها الفكرية المجردة مستعينة بالأمثلة القصصية أو الحكايات، حتى بتنا نسمع عبارات من قبيل (قصة الفلسفة، قصة الفيزياء، قصة الأديان، قصة الرسم، الخ) كما لو أن هذه الحقول المعرفية لا يمكن الإلمام بها من غير وضعها ووضع تطورها التاريخي في صيغة قصة. واليوم غدت الأفكار تنبثق وتزدهر وتجد سبيلها إلى الناس من خلال الرواية والقصة، وإيكو نفسه يقول في مقابلة صحافية؛ "في القرن العشرين، أصبح الشكل الروائي الطريق السلطاني للنشاط الفلسفي".

إن حكايات الجدة في الليالي الباردة تساعد غالباً في إنضاج مخيلة الطفل، وتكريس فهمه للعالم أكثر مما تستطيع النصائح والإرشادات والتوجيهات الرتيبة. وإذا كان ذلك يصدق على تعليم الصغار فإنه يصدق على ترسيخ وتوسيع مدارك الكبار أيضاً. ولم تكن مصادفة أن تحوي الكتب السماوية المقدسة (العهدين القديم والجديد والقرآن الكريم) على عشرات القصص والتي من خلالها تتجلى تعاليم الرب ومثله.

"نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين". سورة يوسف/ الآية,٣

وإلى حد بعيد يرجع الفضل إلى القصص في تكوين الوعي الإنساني، وبالتأكيد لم يكن للبشرية أن تتقدم هذا التقدم كله في مجالات الفكر والفن والعلوم المختلفة من غير معونة القصص بإشكاله، بدءاً من الخرافة والأسطورة والحكاية الشعبية ومروراً بالسير والمقامات وروايات الشطار والرومانس والرواية الكلاسيكية وانتهاء بالقصة القصيرة والرواية الحديثة، وقد استطاعت الرواية، كونها شكلاً قصصياً متطوراً أن تغير من صورة المجتمع وأن تؤثر في الحضارة الصناعية الغربية أعظم تأثير، حتى بات كاتب مثل كولن ولسن يرى في الرواية المصدر الأهم لإطلاق قوى الثورة الفكرية والعلمية والصناعية وليس العكس، يقول ولسن؛ "إن داروين وماركس وفرويد غيروا وجه الثقافة الغربية، ولكن تأثير الرواية كان أعظم من تأثير هؤلاء الثلاثة مجتمعين".

إن كوني قارئاً لنص سردي يورطني في نوع من السجال أو الحوار أو التواصل الخفي مع مبدع النص السردي، مع إشاراته ورموزه التي أودعها في داخل النص، وما تسرب من لا وعيه إلى لا وعي النص.. إن ما يرغب به المؤلف في نهاية المطاف هو زج قارئه في تضاعيف النص، كما لو أن القارئ جزء من النص، لا يفكر أبداً بالتملص والإفلات والهرب.. هنا نستطيع حقاً الكلام عن السارد الساحر والمسرود له المسحور، أو بعبارة أخرى؛ عن سحر السرد.

سيـــد محمـــود القمني ومحنـــة الـــزمـــان

زهيـر كـاظـم عبـود

الظاهرة الصوتية التي إتسم بها العرب في تقديس رجل الدين الى درجة التأليه والعبادة ، وعدم الاعتقاد بارتكابه الخطأ والخطايا، وانه لايصدر منه الا اليقين، ليصدر احكامه الباطلة والظالمة بحق المفكر والباحث والمؤرخ بتكفيره واعتباره كافرا خارجا من دين الأسلام، وهو يعرف حق اليقين أن لاخروج من هذا الدين الا بالردة. وسعت جهات لم تستطع اللحاق بركب العالم المتطور وليس لها بالمعرفة والعلم والحقائق الدامغة الى محاربة المفكر والباحث سيد محمود القمني المتسلح بالكلمة والبحث عن الحقيقة، سعت الى محاربته برميه بالألحاد والكفر والردة. وتعتبر تلك الفتاوى التي ترمي المفكر بالردة دعوات صريحة للقتل تضع مطلقها أمام المسؤولية القانونية في مصاف التحريض على الفعل، والمشاركة الفعالة في الفعل الجرمي اذا وقع أي مكروه على حياة أو شخص المفكر والباحث سيد محمود القمني، ولايشترط فقط إن تقوم مصر بتحمل مسؤوليتها في ذلك، أن الأمر اليوم يقع على جميع البلدان المتمدنة التي تحترم الإنسان مهما كان التزامها الديني أو السياسي، ويضع المثقفين والباحثين في موقف أنساني يتناسب مع تطور الحياة الإنسانية وموجبات البحث العلمي الرصين، ولذلك لابد من تشريع دولي يلاحق تلك العقول المتحجرة التي تعطي لنفسها الحق في أصدار الأوامر بقتل البشر. . وحيث وجد هؤلاء وهم يطلقون احكامهم القاتلة بحق الآخرين دون إن تتخذ بحقهم المنظومة الدولية أو حتى سلطاتهم الإجراءات القانونية، بزعم أنها دول أسلامية يتحدد دينها في نصوص الدساتير التي تلزم عملها القانوني، غير إن هذه الدول نفسها تخرق ليس فقط حقوق الإنسان ولا نصوصها الدستورية التي تزعم التزامها بحرية العقيدة والفكر، وليس فقط في حماية المواطن، وانما حتى في حق المساواة وفي المواطنة حيث يصبح العالم والباحث والمفكر الذي يعطي تحت سطوة رجل الدين الذي يأخذ، فيكون العالم مجنياً عليه والمفتي أحد الجناة. وحيث أن انفراد اشخاص بإصدار تلك الأحكام والفتاوى يعتبر تجاوزا على اختصاص القضاء، كما أن الأحكام القضائية في النظام الإسلامي إنما تبنى على الظاهر من الأعمال أو الأقوال، لا على الباطن الذي انطوت عليه القلوب أو أسرته الضمائر. وهكذا، فإننا لا نجد حتى في النصوص المتعلقة بالردة في آيات القرآن الكريم تقديرا لعقوبة دنيوية للمرتد، وإنما نجد فيها تهديداً متكررا، ووعيداً شديداً بالعذاب الأخروي. ولا شك في أن مثل هذا الوعيد لا يرد إلا في شأن معصية لا يستهان بها. يكفي أن الله سبحانه وتعالى قد وعد المؤمنين بمغفرة الذنوب جميعا، في الوقت الذي توعد فيه من كفروا بعد إيمانهم، ثم ازدادوا كفراً بأنه لن يغفر لهم ولن يهديهم سبيلاً. فالردة في حكم القرآن الكريم معصية خطيرة الشأن وإن لم تُفرض لها آياته عقوبة دنيوية، ووفق كل ما ذكر من اين يستمد هؤلاء صفة الحاكم بأمر الله أو أمير المؤمنين في ظل وجود دول ودستور وقوانين تمنح الحقوق وتحدد الواجبات ويتساوى تحت ظلها الجميع، وتحرص على توفير حرية الفكر والرأي والمعتقد. وإذا كان الفعل الذي يقضي بتحريض الناس من ممسوحي العقل والضمير الى ارتكاب الجريمة في قتل الإنسان، دون تحقيق أو محاكمة، أو حتى دون وجود تلك الحقائق التي تؤكد فعل الردة، بفتوى تبيح للناس فعل إجرامي في تنفيذ القتل بأية صورة، فأنه يقع ضمن الأفعال الإرهابية التي ترهب الإنسان في كل زمان ومكان.

وسيد محمود القمني أحد الكتاب والمفكرين التنويريين العرب، أسست كتاباته في قراءة التاريخ الاسلامي لمرحلة جديدة ومهمة من تاريخ الفكر العربي المعاصر، إذ تمكن وعبر العديد من كتبه، من كشف المستور والمسكوت عنه في التاريخ الاسلامي او الذي يراد له ان يبقى كما هو مقدس لايمس ولا ينتقد.ولهذا فأن المنهج الذي يعتمده القمني واضحا وصريحا لايساهم في ابقاء المستور أو المراد تغطيته من أحداث التاريخ الأسلامي والعربي، لاينسجم مع ما تريده بعض العقول، فأن المشكلة تكمن في تلك العقول التي بدت لاتنسجم مع الزمن والتطور، لأن المنهج الذي يعتمده القمني في الكتابة التاريخية هو المنهج البحثي العلمي المطلوب، وهذا المنهج لايتعارض مع الحقيقة التي تؤكد عليها كل الديانات، ومن اللافت للنظر أن يقدم المتسلطون على خناق الدين على تحريف القصد العام ليوجهوا الامور باتجاه مغاير للحقيقة، وهي طريقة سبق إن تم نجاحها في ابادة العقول العلمية واغتيال الطاقات والكفاءات المتعارضة مع مناهج التحريف والتزوير. ولهذا فأن نظرة القمني تكمن في أن قراءة المدين من خلال التحليل الاجتماعي والتاريخي بصورة مكثفة يؤدي الي أضعاف مكون أساسي أو بعد جوهري في الدين وهو البعد الماورائي أو الميتافيزيقي والذي بدونه لا يصبح الدين دينا. ويقول نحن نقرأ الدين ونتعامل معه منذ قرون بالمنطق الماورائي فهل إذا فتحنا مساحة بالمنهج التاريخي نصبح كمن يهدم الدين؟ نحن ندرس ما يمكن أن يدخل في أطار المنهج العلمي. طالما بقي الإسلام في ساحة الاعتقاد وحده يظل في مساحة الرأي والرأي الآخر مختلف حوله ولد سيد القمني في محافظة "\بني سويف بتاريخ ١٣/ ٣/ ١٩٤٧م، وحاصل على ماجستير في الفلسفة من جامعة عين شمس، ثم حصل على درجة الدكتوراه، وله العشرات من الكتب والمؤلفات القيمة والتي نالت اعجاب القراء والنقاد والمتابعين، كما أثارت حنق المتحجرين ، ومن مميزات خطاب سيد محمود القمني انه يخاطب العقل، ويبحث بجدارة وبعقلية البحث الجاد، وإذ تتواصل البيانات التي تصدرها محاجر تلك العقول التي تعودت على اتخاذ حماية الدين والمقدسات ستارا للجرائم الخسيسة بحق العلماء، فأن العصر لم يزل يتخطى الأمم التي تقودها وتستفحل فيها مثل تلك العقليات، فيتركها تراوح في أماكنها أن لم تتراجع الى الوراء، في زمن تركض فيه الأمم نحو التمدن والحضارة والتطور واحترام حقوق الإنسان. لم يزل سيد محمود القمني يواجه في زماننا العربي محنة تلك العقول التي تريد اعادة مفاهيم عصور الجاهلية أو زمان أمير المؤمنين الذي يرتدي عوينات عازلة وهو يركب الحصان لاتجعله يشاهد الزمن الذي نحيا فيه.

سيد محمود القمني

في محاولة متكررة عبر الزمان تحاول بعض العقول المتحجرة إن تحدد العقل العربي وتقيده، وتمنعه من المتابعة والبحث وأعمال العقل ، وتسعى الى أبقاء العقل مقيدا ليس له أن يبحث أو ينقب عن الخفايا والزوايا التي أريد لها إن تبقى مستترة، أو يفحص تلك الروايات والأحاديث التي سجلتها السلطات لصالحها في زمن معين، وتحاول تلك العقول إن تبعد المفكرين والباحثين عن تقليب تلك القضايا والقصص التي يتم وضعها في قوالب القداسة أو الخروج عن الحدود التي تم تقييدها وتحديدها للبشر كخطوط حمراء في عدم تجاوزها. وفي محاولة متكررة عبر الأزمنة والأمكنة تحاول بعض العقول التي تدعي المعرفة بالدين والتاريخ إن تفرض سطوتها وقوتها بالسيف تارة وبالخنجر وطلقات المسدسات تارة أخرى، تعبيرا عن عجزها وإفلاسها في مواجهة الكلمة والحقيقة ، وحين لاتجد منفذا لمواجهة المفكر أو الباحث، فأن هذه العقول تلجأ غالبا الى رمي الآخر بالكفر مستغلة سيطرتها على العقل العربي الفارغ الا من الكلمات الرنانة والعاطفة الجياشة ، واستغلال

الجمعة الحزينة للصحفيين

فاجعة السيد حنظل وولده الطبيب أمجد

كـــريم شغيـــدل

حنظل حسن نزال مواطن عراقي تجاوز العقد السادس من عمره كدٍ كأي عراقي عاش سنوات المحنة والحرمان والعوز وكدح ليظفر بمجموعة ابناء الله وحده يعلم بوطأة لحظات القلق التي قاساها حفاظاً عليهم، ما يزال ابناء محلة الصحفيين في البلديات يتذكرون كيف كان يقف تحت أشعة شمسنا اللاهبة ليشرف على عمال البناء وهو يرنو الى حلم يتحقق طابوقة طابوقة على مساحة مئتي متر، لكنهم لا يعرفون عن هذا الشيخ الجليل سوى محياه السمح وطلعته البهية الوقور النادرة ليرد التحية على عابر او يحي جالساً، أنا عن نفسي أعتدت ان أنزل من السيارة قبالة بيته لكنني لا أتذكر ولو مرة واحدة ان وجدت الباب مفتوحاً، فعائلة السيد حنظل (مستورة) كما يقول التعبير الدارج، لا صوت لها في المنطقة، بالمصادفة اكتشفت ان له أبناً كبيراً استأجر بيت احد الاصدقاء وهذا يعني ان البيت الذي ابتناه ابو امجد لم يسع العائلة، المؤكد عندنا ان هذه العائلة لم يرتبط أحد أبنائها(بميليشيا محظورة) حسب المعايير القانونية ولا بأي حزب سياسي او جماعة مسلحة، ولم نعرف حتى هذه اللحظة الميول السياسية لابناء هذه العائلة، لم نعرف سوى ان احد الابناء طبيب اسنان في ربيع الوطن المنكوب، فما الذي جنته هذه العائلة المسكينة لتكون ضحية ردة فعل مبالغ بها من قبل القوات الامريكية ؟؟ سؤال جريح لا ضماد له اشد مرارة من وقع الأيام التي عاشها ويعيشها العراقيون ونحن ندرك ما معنى (حنظل) فليس مصادفة أن يسمي العراقيون أبناءهم دلالة على قسوة العيش ومرارته التي ورثها المرحوم أسماً ومسمى واورثها لابنائه بتسميات مغايرة، ففي اليوم المشؤوم ١٣/ ٧/ ٢٠٠٧ كانت العائلة على موعد مع جمعة حزينة هزت وجدان الجميع وأرقت ضمائرهم، ولو ان الموت العراقي لم يعد أمراً غريباً بعد ما اصبح جزءاً من يومياتنا الدارجة، ففي حوالي الساعة الثانية عشرة ظهراً سمع من مكان بعيد صوت انفجار عرفنا لاحقا أنه بسبب عبوة ناسفة انفجرت على رتل للهمرات الامريكية، حدث هذا في شارع الكمالية الذي يفصله عن منطقة الصحفيين مساحة كبيرة وإذا بوابل من العتاد الغريب ينهال ويتشظى على المساكن الآمنة، هرع السيد حنظل وبعض ابنائه بعدما طرق الرصاص بابهم ليتبينوا الأمر وإذا بالقذائف تنهال عليهم لتردي رب الاسرة وولده طبيب الاسنان (أمجد) قتيلين ممزقي الجسد وتجرح طفلة ماتزال راقدة في المستشفى، لم يكن هناك مسلحون ولا زارعو عبوات ناسفة والانفجار حدث في مكان بعيد فماذا نسمي ردة الفعل الهوجاء هذه؟ لم هذه العدوانية غير المبررة؟ ما جدوى هذا الاستعمال المفرط للقوة؟ لماذا يكون العراقي مستهدفاً وهو في بيته؟ لماذا يعالج الخلل بأخطاء جسيمة يذهب ضحيتها الأبرياء؟ مسؤولية من هذا ؟ أهذه هي الاستراتيجية الجديدة للقوات الأمريكية في مكافحة العنف ومطاردة الارهاب؟ ان توجه نار غضبها للسكان الأبرياء وهم قابعون في منازلهم كلما تعرضت لهجوم، ولماذا الصمت بازاء ما يحدث؟ بعنق من يا ترى دم الشهيدين حنظل وولده أمجد؟ انها سابقة خطرة ان تكون ردود أفعال بهذا الشكل الهستيري وعلى حساب الأبرياء، وللأسف الشديد كل هذا يحدث وسط صمت حكومي واعلامي.

ان الهجوم المباغت الذي شنته القوات الامريكية تسبب بجرح عدد من الاطفال ايضاً كما تسبب بجرح احد البقالين وبائع للثلج، ولم تكن منطقة الصحفيين هي المستهدفة فحسب بل شمل الهجوم جميع المناطق المحيطة بمنطقة حادث التفجير وبصورة عشوائية وبمعدل كثيف من دون أية مبررات امنية او سوقية او عسكرية ولا نعلم بعدد الضحايا الذين تساقطوا في بقية المناطق المجاورة، شهود عيان أكدوا ان الرمي لم يكن موجهاً للاعلى لغرض التخويف بل موجه للصدور، ألا يعد هذا إرهاباً؟ ترى ما موقف الادارة الامريكية ووزارة دفاعها و قيادتها العسكرية من هذا الاستخدام المفرط للسلاح بوجه الابرياء؟ وما موقف حكومتنا من عنف كهذا يطول الابرياء ويقتحم منازلهم عنوة؟ للعلم ان المناطق المحيطة بمنطقة البلديات شرقاً تعاني منذ شهور من أزيز الطائرات العمومية ليل نهار والقاء المشاعل ودوي الانفجارات حتى حرم المواطنون من النوم في السطوح هرباً من الحر بعدما يئسوا من تحسن الوضع الخدمي، لقد قضي الامر واحرقت السفن فلا مفر، الارهاب من أمامنا والامريكان من ورائنا.. رحم الله الشهداء ومن على الجرحى بالشفاء العاجل.